

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة زيان عاشور - الجلفة
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
قسم علم النفس والفلسفة

محاضرات موجهة إلى طلبة السنة الأولى ماستر تخصص فلسفة عامة
مقياس: مشكلات في فلسفة التاريخ
إعداد: الدكتور : بوصالح حمدان

السنة الجامعية 2020/2019

محاضرات موجهة إلى طلبة السنة الأولى ماستر تخصص فلسفة عام
مقياس: مشكلات في فلسفة التاريخ
إعداد: د/ بوصالح حمدان

ملخص عام:

إن الإنسان لا يمكنه إدراك أي حدث من أحداث التاريخ، ما لم يكن لديه وعي لأحداث ذلك التاريخ ولن يدرك المفهوم الصحيح لوجوده في هذه الحياة ما لم يستوعب العبر من هذا التاريخ، وقد تشكل الوعي بمعنى التاريخ وأهميته مع أول من سجل وثيقة يصف فيها إنجازات البشر في أي مجال من المجالات، وقد بدأ ذلك منذ فجر حضارات الشرق القديمة، فالنقوش الأثرية على جدران المعابد تعبر بصورة أو بأخرى عن نوع من الوعي التاريخي لدى أصحابها من خلال اهتمامهم بتسجيل تجارب الأجيال الماضية، وخبراتها ومنها أعمال الملوك والحكام وكذا محاولة تفسير التاريخ البشري العام من خلال الأساطير الكبرى كأسطورة الخلق والطوفان.. ومع تطور فكر الإنسان عبر الزمان تطورت أيضا المعرفة التاريخية ودورها الحضاري ليتحول التاريخ من مرحلة التراكم الكمي والسردي إلى محاولة دراسة معنى التاريخ وقوانينه والاتجاهات الرئيسية لتطوره وصياغة النظريات واكتشاف القوانين التي تفسر حركة الإنسان في الكون.

لقد انتقل التاريخ من محاولة الإجابة عن السؤال «ماذا حدث؟» إلى محاولة الإجابة عن السؤال: «لماذا حدث ما حدث؟ وكيف حدث، وما الغاية مما حدث؟ هل هناك قوانين تحكم هذه الصيرورة التاريخية؟ وحول هذه الأسئلة المفصلية كان مدار بحث الفلاسفة الذين قدموا نظريات في فلسفة التاريخ.

تهدف هذه المحاضرات إلى الوقوف على أهم الإشكاليات التي طرحتها فلسفة التاريخ سواء في شقها النظري التأملي المتعلق بمحاولة اكتشاف معنى أو دلالة في طبيعة المسيرة التاريخية أو في شقها النقدي المتعلق بالتحليل الفلسفي للتاريخ أي تشخيص منطق ومفاهيم وأساليب عمل المؤرخ.

المحاضرة الأولى

مدخل إلى فلسفة التاريخ

تمهيد:

الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يعي ماضيه ويستفيد منه في فهم حاضره واستكشاف أفق المستقبل، ويعد التاريخ، في معناه الشامل، استجابة لمحاولة الإنسان فهم كينونته الحضارية في هذا العالم ومعرفة ذاته على المستوى الفردي والجماعي، إن رؤية الإنسان للتاريخ تعبر عن رؤيته للكون وللاله والإنسان والطبيعة، ومن ذلك فدراسة رؤية التاريخ هي في واقع الأمر دراسة وفهم لواقعية الكون، ولكن ماذا نعني بالتاريخ؟

الدلالات اللغوية والاصطلاحية للتاريخ:

"التاريخ" كلمة يونانية الأصل (Historia) وتعني الرؤية والمشاهدة أو الاستقصاء بقصد المعرفة أو التحقيق وهذا هو معنى الكلمة كما هي لدى "هيرودوت" في "تواريخه" التي هي أبحاث وتحقيقات ومنها

اشتقت اللفظة الانجليزية history: والفرنسية Histoire والتي أصبح لها معنيان، يعني الأول الماضي البشري، ويعني الثاني الجهد المبذول لمعرفة الماضي ورواية أخباره، أو العلم المعني بهذا الموضوع.

والتاريخ في اللغة العربية مشتق من تأريخ، وتورخ، وهو يعني الإعلام بالوقت، وقد يدل تاريخ الشئ على غايته ووقته الذي ينتهي إليه زمنه، ويلحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجلية. وهو فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان ومسائله أحواله المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة وفي الزمان 1

ويعتقد البعض أن كلمة تاريخ مشتقة في اللغة العربية من القمر أو الشهر وبذلك تكون الترجمة الحرفية لكلمة التاريخ هي التوقيت حسب القمر أي الإشارة إلى الشهر واليوم عن طريق ملاحظة القمر وانتقال المعنى من التوقيت القمري إلى التاريخ والحقبة 2.

معنى التاريخ في الاصطلاح:

تطلق لفظة التاريخ على الأحوال المتعاقبة التي مرت بها البشرية فمنها ما يعرف بالأخبار والتقاليد والآثار كما في التاريخ، ومنها مالا سبيل إلى معرفته بهذه الوسائل، كما في علم ما قبل التاريخ 3

التاريخ هو دراسة التطور البشري في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية أيًا كانت معالم هذا التطور ومظاهره واتجاهاته، فهو وعاء الخبرة البشرية، أو هو العلم الخاص بالجهود البشرية في الماضي وتستهدف منها جهود المستقبل.

التاريخ يتناول أمة من الأمم بالتنقيب في طوايا فكرها ومدى ارتباط ذلك الفكر بالحياة، ثم اتصاله بمسيرة الإنسان وجهوده المتصلة لرفع شأنه اقتصاديًا وعلميًا وفكريًا، ومدى ارتباط ماضي الأمم بحاضرها، وحاضرها بمستقبله 4 وإذا كان هناك تاريخ للنبات والحيوان والفن، فإن التاريخ المصطلح عليه هو تاريخ الإنسان الذي هو دراسة لأعماله في الماضي وأفكاره ومشاعره ومخلفاته، وبصفة عامة دراسة لتطور المجتمعات البشرية.

وقد اختلفت دلالات التاريخ باختلاف البنية الثقافية والحضارية التي تولدت عنها وسنذكر فيما يلي بعض النماذج لتطور مفهوم التاريخ عبر تطور الحضارات الإنسانية.

1 أحمد عطية، فلسفة التاريخ ، ص 11

2 روزنطال: الموسوعة الفلسفية، ص 228

3 29-روزنطال : المرجع نفسه

4 أحمد عطية ، فلسفة التاريخ ، ص 4

التاريخ في الحضارات الشرقية القديمة:

ان الوعي بأهمية التاريخ قد بدأ منذ فجر ، حضارات الشرق القديم فالنقوش الأثرية على جدران المعابد تكشف عن عمق الايمان بأهمية تسجيل ما حدث في العصور السحيقة، فما تذكره ملحمة "جلجامش" في العراق القديم ، وما جاء في كتاب التاريخ لـ "كونفشيوس" يبين ما لدى هذه الحضارات من وعي بتسجيل المنجزات الحضارية سواء أكانت أحداثا سياسية او مواقع حربية أو مكتشفات علمية في مختلف العلوم أو كانت نظريات فلسفية بلورها مفكرو هذه الحضارات 1

تزرخ الذاكرة البشرية بزخم واسع من الأساطير ، كأسطورة "جلجامش" ، وأسطورة الخلق والتكوين والظوفان ويعد هذا الضرب من التدوين التاريخي شبيه التاريخ الذي لا يسجل ما حدث فعلا بل ما حسه الناس وأحبه أو اعتقدوا في أوقات مختلفة بأنه قد حدث " ان الأسلاف قبل خمسة آلاف سنة قد تمكنوا من دخول مرحلة العصور التاريخية حينما اكتشفوا الكتابة والتدوين التاريخي ، متجاوزين آثار الكوارث والمصاعب الطبيعية ، وفي مقدمتها الطوفان حتى بدا لنا كأن المعنى الباكر للتاريخ هو الشاهد المدون 2.

ولقد بينت المكتشفات الأثرية أن الحضارات الشرقية ، قد عبرت عن إحساسها بالتاريخ من خلال اهتمامها بتسجيل تجاربها وخبراتها ومنها أعمال الملوك والحكام ، ومحاولة تفسير التاريخ البشري العام من خلال الرموز الأسطورية مثل خلق الإنسان ومكانته في نظام الكون والحياة وظهور المجتمع وأنظمة الحكم فقد استخدم العراقيون القدماء حادثة الطوفان كحد فاصل بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، وكان من أهم المدونات التاريخية التي وصلتنا عن العراق القديم جداول الملوك وهي : ثبت بأسماء الملوك والسلالات وسني حكمهم ، نظمها الكتبة عند مطلع الإلف الثاني قبل الميلاد ، وأشهر هذه الجداول ، هي جداول الملوك السومريين التي ذكرت أسماء وسنين حكم الملوك الذين تعاقبوا على حكم البلاد منذ أقدم العصور السابقة للطوفان وحتى تاريخ تدوينه 3

لقد كانت الأسطورة ، ابرز مصادر كتابة التاريخ ، ولعلها أيضا من ابرز مصادر تفسير التاريخ لديهم، فقد شغلت موقعا بارزا في الحياة الفكرية والروحية لأمم العالم القديم وكان للأساطير علاقة وثيقة بالتاريخ لما تضمنته من مادة تاريخية أولية ، وتفسير لحوادث التاريخ . ويمكننا القول ان النمط القصصي الذي تميزت به الأسطورة كان الخيط الأول في لحمة التاريخ ، ومع تطور الحضارة وازدهارها اخذ التاريخ يشكل أساسا جوهريا في تسجيل الأحداث وأصبح بمثابة السجل الذي يحفظ الأحداث والأفكار والأعمال ، من خلال تتبع مسيرة الحضارة الإنسانية.

التاريخ عند اليونان

إذا كان التأثير اليوناني مجالات الفلسفة والرياضيات والمنطق والأدب أكثر عمقا في الحضارة الإنسانية فإنه لم يكن كذلك في مجال التاريخ كعلم بالمفهوم الحديث للكلمة، قد اتخذ التدوين التاريخي عند الإغريق

1 النشار ، مصطفى، فلسفة التاريخ معناها ونشأتها واهم مذاهبها. دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة .-، ط1 ، عمان ، 0211 ، ص22
2 الجابري علي حسين، فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر ، جدلية الأصالة والمعاصرة ، القسم الأول ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (ب،ط)، بغداد ، 1999 ، ص19

3 الملاح ، هاشم يحيى . المفصل في فلسفة التاريخ . دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، 0221 ، ص4

شكل الأسلوب الملحمي وقد اشتملت الإلياذة والأوديسيا بين صفحاتها على البذور الأولى للاهتمام بهذا البحث إذ يتعنى "هوميروس" بتمجيد البطولة وروح القتال التي يستمد منها الإنسان قيمته ومكانته التي تدفعه إلى فعل التجاوز والتقدم، وقد ورد ذلك في قصص تاريخي، غير أن هذا النوع من الكتابة لم يعد إهتمامه بالأحداث ذاتها أكثر من ارتباطه بمغزاها حيث كان يعنى بشخصيات الأبطال والمتفوقين والإشادة بخصالهم دون الحديث عن أسباب الانتصار، إضافة إلى أنّ اليونان لم يهتموا بمجمل التاريخ البشري .

وإذا كان ثمة علامة مضيئة في قدم الفكر التاريخي عند اليونان ، هي ما أبدعه "هيرودوت" في كتابه "التاريخ" والذي تبنى فيه خصائص منهجية جديدة في الكتابة التاريخية ، ويبقى كتابه في التاريخ أهم المراجع لمعرفة أخبار الأمم القديمة. وهو عبارة عن تسعة كتب في مجلد واحد اسماء "ايستوريا" وهي كلمة يونانية تعني البحث والاستفسار من أجل الفهم ويؤكد "ارنولد توينبي" على أهمية "هيرودوت"، بقوله: إن "نتائج أبحاثه لها هدفان ،احدهما إنقاذ تاريخ الجنس البشري من النسيان ، ثم إثبات أن الأعمال الرائعة التي اضطلع بها الهيلينيون والشرقيون سوف تتمتع بما هي أهل له من شهرة خاصة تلك التي أدت الى صدام فيما بينها"¹

التاريخ في الديانات السماوية:

التاريخ عند اليهود:

للتاريخ مكانة خاصة عند اليهود، وتستند أفكار اليهود حول طبيعة التاريخ وموقفهم منه الى الكتب العبرانية المقدسة إن الترتيب الذي جمعت على أساسه يشير إلى تتابع تاريخي بداية بما اعتبره القوم بداية البشرية، وتدل محتويات الأسفار التاريخية على أن اليهود كانوا على اهتمام بشيء أعمق من مجرد تسجيل الأحداث إذ الشيء الأهم في نظرهم من ذلك هو تفسير الأحداث من حيث اتجاهات من ورد ذكرهم فيها وما يدخل تحت ذلك من علاقات ضمنية بالإله² .

ونظرة اليهود إلى التاريخ تقوم أساسا وفي أوسع نطاق على المذهب التأليهي، فالطريق إلى فهم التاريخ هو فكرة السيطرة الإلهية ومع أن الإصحاحات الأولى من سفرهم الأول التكوين، إعتبرها بعضهم أسطورية ميثولوجية، فإن تلك الكتب تنطوي على فكرة جوهرية هي أن بداية التاريخ البشري إنما ترجع إلى الله، فهو الذي خلق الأرض بكل ما لها من خصائص تجعل التاريخ ممكنا على ظهرها وذهب اليهود إلى أن الله ظل دائما على اتصال بالناس في التاريخ، وفكرتهم عن التاريخ لم تكن قط، ذات نزعة فردية فهي فكرة تدور حول شعب إسرائيل أولا ثم حول البشرية عامة.

يعتقد اليهود انهم شعب الله المبارك المختار، إذ تقنى الشعوب والأمم ولكنهم خالدون إذ قال الرب يهوه: "إسرائيل ابني البكر" وهذا الاعتقاد عند اليهود جعلهم يزعمون بأنهم انفردوا بالتوحيد بين أمم وثنيه وهو الأمر الذي جعلهم يتعرضون للاضطهاد، غير أن الحقيقة منافية لذلك، بل لأنهم كما يقول " فولتير" يمقتون الأمم الأخرى ويقتلون أعداءهم المغلوبين بلا رحمة³ ، فهل يعقل أن يختار الله شعبا إستحثه نبيه موسى على

1 توينبي ، ارنولد ، الفكر التاريخي عند الاغريق . تر ، لمعي المطيعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط0 ، بيروت ، 1992 ، ص49
2 قريقوري وإيدقري :التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاوير، الهيئة المصرية العامة للكتاب) د ط)، 1972 ، من ص 85 إلى ص8

3 أحمد محمود صبحي :في فلسفة التاريخ، ص294

قتال فرعون الذي اضطهدهم في مصر فما كان لهم من رد سوى قولهم: ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾¹

التاريخ عند المسيحيين :

تقدم المسيحية التاريخ في صورة من الدراما المسرحية في شكل أربعة فصول، حيث في الفصل الأول: مشهد سقوط آدم الخطيئة، والفصل الثاني : دخول الله في التاريخ متجسدا في صورة بشرية "ياسوع المسيح"، الفصل الثالث : تبشير العالم بالإنجيل مع إتساع نطاق نشاط الكنيسة، أما الفصل الرابع والأخير: فهو عودة المسيح للمرة الثانية والأخيرة حاملا معه يوم الحساب.

وفيما يتعلق بحياة المسيحيين وانتشار المسيحية في التاريخ فإن الله في صورة ثالث واحد هو : الأب، الإبن والروح القدس، ويرون أن الأب خالق الدنيا وبارئ البشر هو صورة سامية هو : لا تلحق، وأنه بذلك طبع عصور التاريخ، وأن الإبن هو المخلص الذي يرد التاريخ إلى هدفه الذي أراده الله منه، ويرون أن الروح القدس هو الذي يطهر الناس أثناء عملية التاريخ، وعلى هذا الأساس يقابل التاريخ في المسيحية بالإيمان². وبهذه الكيفية نجد أن المسيحيين أيضا يصفون الصبغة اللاهوتية على التاريخ ويفسرونه وفق منظورهم الخاص نافين أي دور للديانات الأخرى ولا للإنسان بصفة عامة.

التاريخ عند المسلمين:

لفظ (تاريخ) كتعبير عن الماضي أو عن العلم الذي يهتم بدراسته ليس دخيلا على الثقافة العربية الإسلامية ولا هو وليد العصر الحديث بل هو من صميم العقيدة الإسلامية، والتاريخ الديني يشهد على ذلك لقد كان للقرآن الكريم الأثر الكبير في تصور المسلمين للتاريخ، لأن ما ورد ذكره في القرآن الكريم من قصص الأنبياء مع أقوامهم قد حدد خصائص التاريخ الإسلامي والتي يمكن تحديدها في ما يلي:

اتخذ الدين الصدارة التاريخية في القصص القرآني قبل السياسة أو الحكم، فذكر فرعون مثلا لم يأت إلا بسبب موسى أو يوسف عليهما السلام ، أو في موضع آخر بسبب طغيانه.

لقد ارتبط التاريخ الإسلامي ارتباطا وثيقا بالحديث منهاجا وموضوعا، فمن حيث المنهج تأثر التاريخ بالرواية و الإسناد وأما من حيث الموضوع فكان يدور حول حياة وسيرة الرسول- صلى الله عليه وسلم - وبداية التقويم الإسلامي حدد بالهجرة فجمع التاريخ إلى الحديث حقق أهدافا مشتركة هو تسجيل نظم الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية كما شرعها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي جوانب حضارية، لقد فلسفة المسلمين لحوادث التاريخ تعتمد على المصادر الشرعية، القرآن الكريم والسنة المطهرة، فمن هذه المصادر يستمدون التصور الصحيح لفلسفة التاريخ وتفسير حوادثه.

وقد عرف التاريخ الإسلامي أعلاما كبار منهم " المسعودي" المعروف بمؤلفه "مروج الذهب" و "محمد بن جرير الطبري" 224 هـ - 310 هـ حيث يمثل كتابه "تاريخ الرسل والملوك" قمة التأليف

1 سورة المائدة، الآية 24

2 أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص 166 - 167

التاريخي عند المسلمين، في القرون الثلاثة الأولى، من حيث الشمول الزماني والمكاني، ومحاولة الإحاطة بالأحداث من كافة جوانبها، ومن حيث المنهجية العلمية؛ وذلك بنسبته الأقوال إلى أصحابها مع استقامة النظرة التاريخية.

ويعد "ابن خلدون" 732- 808 أشهر المؤرخين في التاريخ الاسلامي واليه يعود الفضل في إرساء قواعد المنهج العلمي في التاريخ سبق به علماء التاريخ في العصر الحديث، يعرف ابن خلدون التاريخ بقوله "وفى باطنه - أي التاريخ بمفهومه - نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق"

التاريخ في العصر الحديث:

يعتبر العصر الحديث نقطة التحول في جميع مناحي المعرفة منها وموضوعا فعقب الاكتشافات العلمية تدعمت ثقة الإنسان في المستقبل انطلاقا من عصر التنوير أسهم الفلاسفة في الدراسات التاريخية إذ جعلتهم نزعتهم المتحررة رواد النقد التاريخي في العصر الحديث، فقد وضعوا كل شيء موضع النقد والفحص، الأمر الذي خلص التاريخ من أخطاء كثيرة كما وسعوا النظرة الأوروبية إلى التاريخ حيث لم يصبح اهتمامه محصورا في اليونان والرومان دون سائر الحضارات وكذلك الشعب العبراني وبهذا أصبح المؤرخ أكثر تحررا وابتعادا عن التعصب الديني والقومي، كما تجاوز مؤرخو هذا العصر العلاقات السياسية و أمور الحروب لأنها لا تكشف عن التقدم، فتجاوزوها إلى أوجه النشاط الإنساني كالعلم و الفن و الفلسفة الأدب والتكنولوجيا، فالتاريخ الحق هو تاريخ الفكر الذي يكشف عن تقدم العقل البشري ومن ثم أصبحت وحدة الدراسة التاريخية هي الحضارة، ومنه بدأت تتحدد معالم فلسفة التاريخ في كتاب "فيكو" "العالم الجديد".1

كما نجد " فولتير " الذي اهتم بالتأريخ للحضارات بدلا من التاريخ للملوك و أخبار السياسة والحرب التي لا تفصح عن تطور العقل الإنساني عبر الزمن، وكذلك اتساع دائرة التاريخ لتشمل الشعوب البدائية وحضارات الشرق القديم وعدم الاقتصار على التاريخ الأوروبي أي عالمية التاريخ" ، وكذلك الكشف عن أخطاء الماضي لتجنبها في المستقبل.

المحاضرة 2

فلسفة التاريخ : المفهوم النشأة والتطور

– في حدود العلاقة بين الفلسفة والتاريخ:

يمكن تحديد صلة الفلسفة بالتاريخ من خلال النقاط التالية:

– تهتم الفلسفة باعتبارها نشاط عقلي تأملي نقدي بالبحث في ثلاثة مباحث أساسية وهي: مبحث الوجود (الانطولوجيا)، ومبحث المعرفة (الايبيستمولوجيا)، ومبحث القيم، ومن هنا تكون صلة الفلسفة بعلم التاريخ من حيث أن الإنسان هو موضوع للبحث والدراسة، فالتاريخ يهتم بمنجزات الإنسان في هذا الوجود هبر المراحل الزمنية المتعاقبة، أي فعل الانسان عبر الزمن، وتهتم الفلسفة الإنسان في جدليته مع التاريخ، فالتاريخ هو تجل لإرادة الإنسان وحريته ووعيه في في هذا الوجود المادي، ومن هنا تسعى الفلسفة الى ايجاد تفسير عقلائي للتاريخ.

— الفلسفة (في جانبها الايبيستمولوجي) هي الدراسة النقدية للمبادئ والمنطقات والمناهج التي تقوم عليها العلوم ومن هنا صلة الفلسفة بعلم التاريخ تنتمي إلى مبحث المعرفة والايبيستمولوجيا وفلسفة العلوم، حيث تقوم الدراسة النقدية للمبادئ والمناهج التي يتأسس عليها التاريخ والنتائج التي يتوصل إليها، وذلك بطرح تساؤلات من مثل: هل المعرفة التاريخية ممكنة؟ ما طبيعة المناهج التي يعتمدها التاريخ؟ بالإضافة الى مشكلة الحقيقة التاريخية ، ومشكلة الموضوعية..

مفهوم فلسفة التاريخ:

يرجع أول استخدام للفظ " فلسفة التاريخ " إلى " فولتير"، إذ يقول "كولنجورد" : انف ولنير أول من اخترع كلمة فلسفة التاريخ في القرن الثامن عشر، دون أن يقصد بها أكثر من عرض تحليلي للتاريخ، وبتعبير أدق كان يقصد نوعا من التفكير التاريخي يتقيد به المؤرخ بمقاييسه الخاصة بدلا من الاعتماد على ما جاء في الكتب القديمة 1. لكن استعمال " فولتير " لا يعني أن فلسفة التاريخ قد ابتدأت به، وإنما ترجع إلى " ابن خلدون"، وقد

1 عبد الحليم مهورباشة، فلسفة التاريخ مدخل الى النماذج التفسيرية، ص 38

قصد بها التعليل للأحداث التاريخية والبعد عن السرد، من خلال تمييزه بين الظاهر والباطن في التاريخ حيث يقول: " وفي ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الدول.... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق"، ويرى البعض أن القديس أوغسطين هو أول من كتب في فلسفة التاريخ، من خلال مؤلفه (مدينة الله).

فلسفة التاريخ فرع من المعرفة يسعى الى الكشف عن العوامل الاساسية التي تحكم سير الوقائع التاريخية واستنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها، أي تهتم بتفسير وفهم مجرى التاريخ في ضوء نظرة فلسفية معينة وتضع وتضع لعلم التاريخ أساسا فلسفيا بحيث لا يبقى التاريخ مجرد سرد للوقائع فقط بل البحث عن القوانين التي تتخطى الزمان والمكان.

لفلسفة التاريخ جانبين اثنين:

– الجانب الأول:

ويسمى هذا الجانب بالفلسفة النقدية للتاريخ، ويهتم بالدراسة النقدية لمناهج علم التاريخ، والكشف عن المبادئ الابيستمولوجية التي تتأسس عليها الكتابة التاريخية لدى المؤرخين، والكشف عن مدى صدق الوقائع، والموضوعية، وصدق المصطلحات التي يستعملها المؤرخ في تفسير الوقائع التاريخية كالعلية والفرض والقانون والتنبؤ. كما تهتم فلسفة التاريخ النقدية بالبحث في طبيعة الحقيقة التاريخية قيمتها حدودها هل هي ممكنة أم غير ممكنة هل يمكن الوصول الى الحقيقة فيما يخص وقائع التاريخ البعيد، وما أثر تأويلات المؤرخين على الحقيقة التاريخية..

الجانب الثاني:

ويسمى بالفلسفة التأملية للتاريخ، وهي الدراسة التأويلية العقلانية للتاريخ تسعى لتقديم تفسير كلي لمجرى التاريخ الإنساني، ومحاولة صياغة القوانين التي تحكم سير التاريخ الإنساني، كنظرية التعاقب الدوري، ونظرية التقدم التاريخي، ونظرية العناية الإلهية ...

مقولات فلسفة التاريخ:

إذا كان الزمان والمكان والفردية تشكل المقولات الأساسية للتاريخ فان لفلسفة التاريخ مقولات خاصة وهي:

– الكلية:

إن نقطة البدء في فلسفة التاريخ هي تكامل بين الأجزاء وترابطا بين الوقائع ويتشكل من ذلك كله ما يسمى بالتاريخ العالمي الذي يصبح مادة الفيلسوف. فلسفة التاريخ لا تقف عند عصر معين ولا تكتفي بمجتمع خاص بل تضم العالم كله في إطار واحد من الماضي السحيق حتى اللحظة التي يدون فيها الفيلسوف نظريته، بل قد لا يقتنع بذلك ويمد تفسيره إلى المستقبل.

العلية

إذا كان المؤرخ في استنباطه للأسباب يتقيد بواقعة جزئية ملتزما بأطر التاريخ أو مقولاته من فردية وإمكانية فإن فيلسوف التاريخ يختزل العلل الجزئية للحوادث الفردية إلى علة واحدة أو علتين على أكثر تقدير يفسر على ضوءها التاريخ العالمي وهذا يقتضي بطبيعة الحال إعادة تشكيل وقائع التاريخ

لينسج منها صورة عقلية، ومثال ذلك نظرية المادية التاريخية لـ"ماركس"، الذي أرجع الأحداث التاريخية إلى عامل واحد هو العامل الاقتصادي أو المادي، و"هيغل" الذي أرجعها إلى العقل أو الروح.
خلاصة:

إن فلسفة التاريخ باعتبارها ذلك الناتج الذي تمخض عن اجتماع التاريخ بالفلسفة هي بمثابة العلم الذي يقوم التاريخ منهجا وموضوعا لأجل الإلمام بالماضي على أحسن وأكمل وجه، وذلك بتجاوزه مقولتي : الزمان والمكان إلى ما بعدهما، واستبدال الفردية بالكلية، ومن هنا جاءت الانتقادات لفلسفة التاريخ على أساس الاختلاف الجوهرى بين مقولات طبيعة الدراسة في فلسفة التاريخ عن طبيعة التاريخ في حد ذاته، انطلاقا من التاريخ العالمي ووحداية العلة، فكان الانتقاد للتاريخ العالمي كمادة لفلسفة التاريخ، لذلك يؤخذ فلاسفة التاريخ على تعليلهم لأحداث التاريخ بناء على تأمل قبلي عقلي لا ينطبق على الواقع في بعض الأحيان، ومن هنا تطرح الإشكالية الأساسية لمن تسند مهمة الدراسات التاريخية للمؤرخ الذي يستخدم المنهج التحليلي والطريقة الاستقرائية؟ أم تسنده لفيلسوف التاريخ الذي يهدف الى صياغة قوانين شاملة قد يرى فيها البعض بعدا عن الموضوعية وزيغا عن المقصود؟ أم أنه على المؤرخ والفيلسوف التآزر كل بآلياته وتقنياته من أجل هدف مشترك هو في نهاية المطاف محاولة تفسير التاريخ وقوانين التطور أي الوصول إلى معرفة القوى الحقيقية التي تحكم حركة التاريخ وتطوره؟

المحاضرة الثالثة

نظريات فلسفة التاريخ

فلسفة التاريخ عند القديس أوغسطين:

يعد "أوغسطين" (354 - 430م) من أهم المفكرين في تاريخ المسيحية علي الإطلاق، كما تعتبر معالجته للتاريخ المسيحي ذات قيمة خاصة، ومع انه كان فيلسوفًا ذا منزلة ممتازة فإنه ركز أفكاره على تقبله للعقيدة المسيحية بدرجة أكثر من تقبله للفلسفة، جاءت أفكار أوغسطين في أهم كتابين هما "مدينة الله" و"الاعترافات" حيث؛ دافع فيهما عن المسيحية باعتبارها المثل الأعلى للدولة أو مدينة الله علي الأرض. وتقوم نظرية "أوغسطين" علي أن العالم منذ أن خلقه الله وهو في صراع بين نوعين من الحب : حب الإنسان لله، وحب الإنسان لنفسه، لهذا انقسمت المدينة إلى مدينتين: مدينة أرضية، ومدينة سماوية، وانقسم التاريخ إلى تاريخ دنيوي وتاريخ مقدس، والإمبراطورية البابلية والإمبراطورية الرومانية هما نموذجا الدولة الدنيوية وأورشليم هي مقام المدينة السماوية، والمدينة عند أوغسطين ليست مدينة محسوسة ملموسة ، إنما كانت مدينة إنسانية أي مجتمعا إنسانيا، ويقول عنها: "المدينة ليست إلا مجموعة من البشر تقع بينهم رابطة اجتماعية" وقد حدد هذه الرابطة على أساس الحب ليتوصل إلى أن المدينة هي الشعب الذي هو جماعة من الكائنات العاقلة التي يجمع بينها حب نفس الشيء¹.

حاول أوغسطين أن يقيم بناءا مثاليا جديدا يتكون من مملكتين الأولى إلهية، والثانية دنيوية وتخضع الثانية منهما للأولى لكي يبرر تحكم الكنيسة في الدولة وفي العالم.

وتتمثل نظرية التاريخ عند أوغسطين في صورة دراما مسرحية حيث يرى أن التاريخ مسرحية ألفها الله ويمثلها الإنسان، أي أن وقائع التاريخ تخضع للمشيئة الإلهية، بل هي التي شكلتها على نحو ما هي عليه، فالإرادة الإلهية هي التي تخط للإنسان العاجز عن فعل الخير لنفسه، ولولا هذا التدخل الإلهي لأصبح التاريخ كومة مضطربة من عصور متراكمة في عبث، أو مأساة رهيبة دون بداية معقولة أو نهاية مقبولة.

إن النشاط الإنساني حسب المفهوم المسيحي، تسييره دائما العناية الإلهية، وان جميع أعمال الإنسان أدوات في تنفيذ المشيئة الإلهية، وعليه فإن عقلية العصور الوسطى الكهنوتية، قد أعفت الإنسان من مهمة صنع تاريخه وترك الأمر كله لله.

والتاريخ عند "أوغسطين" يسير في خط مستقيم من ادم إلى مملكة الله النهائية ، منتهى المؤمنين ، وهو

1 محمود الخضري :لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ، ط 1992 ، . 1ص92

يرفض فكرة العود الأبدي ، لان المسيح صلب مرة ، وفدى البشر مرة واحدة ، وما له بداية ، له نهاية ، يقول :
(بدأ الله خلق الإنسان والعالم) على انه فعل جديد ومن دون أي تغيير في الغرض والخطة الإلهية ، بل وفقا
للخطة الأزلية وسينتهي الحال إليه لقبول الناس أو رفضهم في مدينة الله بحسب إيمانهم 1.
وقد قسم أوغسطين التاريخ إلي سبعة أقسام، قياساً على ما جاء في الكتاب المقدس عن خلق الله للعالم في ستة
أيام، واستوائه على العرش للراحة في اليوم السابع، وهذه الأقسام هي:
القسم الأول: يمتد من آدم إلي الطوفان في زمن نوح عليهما السلام.
القسم الثاني: من طوفان نوح إلي إبراهيم عليهما السلام.
القسم الثالث: من سيدنا إبراهيم إلي عصر سيدنا داود.
القسم الرابع: من داود إلي عصر الأسر البابلي.
القسم الخامس: من الأسر البابلي إلي ميلاد السيد المسيح.
القسم السادس: العصر الحاضر إلي الفترة المعاصرة.
القسم السابع: العصر الذي سوف يستريح فيه الله كما حدث في اليوم السابع 2.
فالتاريخ اذن عند "أوغسطين" لم يكن مجموعة من الوقائع والأحداث ساهمت في صنعها شخصيات، إنما
التاريخ في الحقيقة يتجلى في خطة إلهية تتحقق حتماً، ويكون تجليها في الماضي إشارة لما سيحدث في
المستقبل وحتى آخر الزمان.ويمكن القول ، ان أوغسطين قدم أول نظرية في فلسفة التاريخ تستند إلى أسس
لاهوتية مسيحية ، فظهرت منذ ذلك الحين تفسيرات للتاريخ وتصورات مختلفة لكيفية مسيرته تستند إلى العقائد
العقائد المسيحية في المقام الأول، وتركت هذه التفسيرات أثرها في الفكر الغربي طوال القرون الوسطى ،
وحدت من الاهتمام بالتاريخ والتدوين التاريخي الذي كان يقتصر في تلك الحقبة على حوليات تواريخ لاتهتم
غالباً سوى بتاريخ الكنيسة ورجال الدين وخوارق الطبيعة.
وبهذا أصبح تفسيره للتاريخ هو التفسير الرسمي للكنيسة على مدى أكثر من ألف سنة ولم يتعرض هذا التفسير
للنقد والمراجعة إلا مع بدايات عصر النهضة في أوربا.

فلسفة التاريخ عند ابن خلدون:

يعد ابن خلدون في نظر الكثير المؤسس الأول لفلسفة التاريخ فما صلة أفكاره بمقولات فلسفة التاريخ؟
تقوم دراسة ابن خلدون ، للتاريخ من خلال اهتمامه في دراسة الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم ، وما
يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، فقد اعتبر هذه الدراسة المنطلق لمعرفة التاريخ وأحداثه الماضية
ليبان حضارة الأمة ، ومعرفة كل ما يتصل بها من مفاهيم وقوانين وسنن كانت مؤثرة في ولادتها ونموها
ونهبستها ، ومن ثم ضعفها وتحللها وانهارها، ضمن هذا التصور يختلف ابن خلدون عن المؤرخين الآخرين
الذين اهتموا لأثر الفرد والبطل.

1 الالوسي ، حسام الدين ، الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، (ب،ط)، 200، ص 134

2 احمد صبحي ، في فلسفة التاريخ ، ص 145

اهتم ابن خلدون بحركية المجتمع وأطوار الدولة وحاول بعد دراسته للتاريخ الإسلامي استخراج قوانين تتحكم في سير المجتمعات وهذا ما أكده توينبي بعد دراسته لابن خلدون حيث تبين له أن فيلسوف التاريخ يستفيد من دراسة الماضي بنقد مضمونه وهذا يساعده على تطوير علم المناهج أو ما يعرف حديثاً بالنقد التاريخي الذي مارسه ابن خلدون ونال به السبق على المؤرخين.

نظر " ابن خلدون " الى التاريخ والحضارة من وجهة نظر تطورية حيوية حينما شبه المجتمع بالجسم الحي الذي يولد وينمو وينضج ويضعف ويتدهور ويموت فالتاريخ عند ابن خلدون ، عبارة عن دول تظهر وتنمو ثم تقنى والفناء عنده هو النهاية المحتومة دائماً ، وشيء واحد هو الذي يفلت من الفناء ، هو التطور، غير أن هذا التطور لا يسير في خط مستقيم ، أو دائري، بل بشكل لولبي، وذهب إلى أن هناك عوامل تتحكم في التطور التاريخي هي : الاقتصاد والدين والبيئة الجغرافية¹ .

ولقد جاءت رؤية ابن خلدون التاريخية حصيلة لتجربة غنية ومعايشة مستمرة للدول والأنظمة والشعوب المتصارعة في زمانه، فأستخلص بأن التاريخ هو نهوض وانحطاط " للدول من حالة البداوة إلى حالة الحضارة وان كل نظام يمر بالدور نفسه من الميلاد والنمو والنضج والانحطاط أشبه بالكائن الحي الذي يولد وينمو ويموت 2، وعلى هذا الأساس حدد "ابن خلدون" أربع مراحل متعاقبة لميلاد الدول وزوالها: وهي البداوة الملك ، الحضارة ، السقوط، وعلى هذا التاريخ والحضارة عند" ابن خلدون" دورة متصلة وصراع دائم على الملك والرياسة والحضارة ، والحضارة هي غاية العمران ومنتهاه ، ولكنها سبب خرابه وزواله.

منهجية ابن خلدون في كتابة التاريخ:

وبناء على ما سبق يمكن أن نجمل أسس المنهج الخلدوني في دراسة التاريخ في النقاط التالية:
الديناميكية:

يعد المجتمع عند ابن خلدون كائناً تاريخياً يتطور وفق قوانين خاصة به، وهي قوانين يمكن ملاحظتها وتحديدها، وذلك عن طريق دراسة الظواهر الاجتماعية المجتمع تمع ليس جامداً بل متحرگاً، أي ديناميكياً، لذلك اعتبر ابن خلدون ان الجهل بطبائع العمران وتبدل الأحوال في المجتمعات يعد من السباب الخطأ عن المؤرخين.

الديالكتيكية:

تتمثل الديالكتيكية عند ابن خلدون فيما قاله من أن عامل قيام الحضارة هو نفسه عامل تدهورها وفنائها، العصبية عامل قيام الدول، والعصبية عامل فنائها، والترف غاية الحضارة والملك، به تقاس قوة الدولة وهو العلة الأساسية لحدوث الخلل في الدولة، إنه مؤذن الفساد، إذا حصل الترف أقبلت الدولة على الهرم. بالعصبية تتم الرياسة أي تقام الدول ويتوج الملوك، ولا تطيب الرياسة إلا بالاستغناء عن العصبية، حتى لا يزاحم الملك، ويشعرونه بأنهم هم الذين مكنوه من الحكم والإدارة.

والترف مظهر للحضارة وغاية العمران ويرهب الأمم المجاورة، والترف هادم للحضارة ومؤذن بنهاية العمران، ويغري القبائل بالانقضاض على الدول التي هزمت، بسبب الإسراف في الترف، فالعصبية والترف

1 النشار ،مصطفى حسن ، فلسفة التاريخ ،ص149 151

2 عبد العزيز ، عزة ، فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، مكتبة القاهرة الحديثة ، القاهرة ، ط 1 ، 1960، ص 37

يتميزان بالتناقض الداخلي، في الدور الذي يقومان به في مسار التاريخ وهكذا تتم حركة التاريخ، وهنا نجد ابن خلدون يقول بنوع من الحتمية في التاريخ (حتمية انتقال الحضارة إلى الهرم والتدهور).

المحاضرة الرابعة

فلسفة التاريخ عند فيكو

) يرجع الكثير من الباحثين الفضل في التأسيس لقواعد فلسفة التاريخ إلى "فيكو جيوفاني باتيستا" (VICO GIOVANNI PATISTA) (1688 - 1744)، الفيلسوف الايطالي صاحب كتاب : "العلم الجديد في الطبيعة المشتركة للأمم"، في حين يرى البعض قيمة "فيكو" في فلسفة التاريخ إلى المنهج أكثر منها إلى تأسيسه لنظرية خاصة.

لقد انطلق "فيكو" في تحديد منهجه في التاريخ من تحديد الاخطاء أو ما يسميه التي يقع فيها المؤرخين ، على غرار أوهام العقل التي ساقها "فرانسيس بيكون"، وتتمثل هذه الأوهام عند فيكو في: وهم التهويل والتفخيم :إن قيمة كل فترة تاريخية ليست بمقدار ما تم فيها من إنجازات، وإنما للمسار الإنساني العالم في التاريخ وهو يقابل وهم القبيلة عند "بيكون" .

2-وهم الثقافة الأكاديمية

: لم يتصور مؤرخ أن الشخصيات التاريخية لعبت دورا بارزا وتحكمت في مصائر شعوبها لما كانت عليه من ثقافة وعلم، غير أن فيكو يرى بأن المجد التاريخي والثقافة الفكرية غير مرتبطين ، وهو يقابل وهم الكهف عند "بيكون"

3- وهم الاقتراب :

حين يعتقد المؤرخ أن السابقين أكثر علما من اللاحقين، والعكس أحيانا وهذا راجع إلى تطور التاريخ كذاكرة الإنسان كلما كان موضوع التذكر أقرب عهدا، كان أكثر وضوحا 1.

4 وهم التأثير والتأثير :

وهي ذاتها إنكار للطاقة الإبداعية للعقل الإنساني إن هذه الحقيقة لا يمكن اعتبارها زعما، لأن الإنسان يتأثر من محيطه الصغير " الأسرة " ثم المجتمع المحيط والمدرسة وتتوسع معارفه ومداركه شيئا فشيئا إلى أن تصل إلى درجة من التفكير والإبداع وبالتالي التأثير في الغير، وما يقال عن الفرد أو المجموعة يقال على بقية المجتمعات ، وبالتالي على كل الحضارات.

والحقيقة أن ابن خلدون قد سبق فيكو في هذه القضية بعدة قرون ، من خلال ما ذكره ابن خلدون من أسباب الخطأ في التاريخ، والشروط التي يجب أن تتوفر في المؤرخ.

نظرية التعاقب الدوري للحضارات عند فيكو:

ينطلق فيكو من فكرة أن لعصور التاريخ خصائص مشتركة، وأن مسار التاريخ ليس كعجلة تدور حول ذاتها ولكنه، حركة حلزونية لأن التاريخ لا يعيد نفسه بل في تغير مستمر، ويقسم "فيكو التاريخ إلى ثلاثة أقسام:

1- عصر الآلهة: حيث كانت الشعوب الأممية، تعيش في ظل حكومات تشرع قوانينها انطلاقا من إدارة الحكام الآلهة أو وفقا لمشئئة الآلاف.

2- عصر الأبطال: حيث يسيطر على الحكم أبطال اشداء محاربين يعتقدهم الناس أسمى من البشر، وفي هذا العصر نشأت وازدهرت الفروسية والصليبية.

3- عصر البشر : حيث الاعتراف بتساوي البشر، في الطبيعة، ويتقلص دور الملكيات المستبدة، ظهرت الأنظمة الديمقراطية، حيث اجتازت كل الشعوب هذه الأدوار ومازالت تجتازها في تاريخها إلى اليوم، حيث تصل نهاية الدور الثالث في بداية الطور الأول في نفس الأمة أو لأمة أخرى، فهي دائرة حلزونية 2 .

وقد قدم فيكو في مجلده الأول من كتابه " العلم الجديد " لوحة تاريخية لأهم وقائع التاريخ منذ أن خلق العالم، مستندا إلى التوراة، وأبناء نوح بعد الطوفان اختلفت اتجاهها □ م، بينما حافظ أبناء

سام على لغتهم وعادا □ م تشتت أبناء حام ويافت في الأرض وعاشوا حياة حيوانية ، ففقدوا مزاياهم البشرية ومن ثم انقسم البشر إلى عبرانيين من أبناء سام إلى عمالقة من نسل يافت وحام، ويضيف

فيكو إلى تاريخ اليونان والرومان ، ثم أوروبا في العصور الوسطى.

وبناء على ما سبق فانه يمكن القول أن الأفكار الرئيسية في فلسفة "فيكو " تنقصها الروح العلمية ، كما أن تقييمه الحضارات القديمة يطغى عليه التعصب الديني مما يجعل من أساس نظريته المعتمدة على قصص محرف من العهد القديم ، نظريته لم تصمد أمام النقد التاريخي نظرا لهشاشة مقدمته وتحيزه الواضح لليهود.

1 أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص156

2 أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، ص156

فلسفة التاريخ عند فولتير

تمهيد:

تكاد تجمع البحوث الغربية أن "فولتير" Voltaire (1694 – 1778) هو أول من استعمل مصطلح " فلسفة التاريخ" "Philosophie de l'histoire" في القرن الثامن عشر ببحث نشره سنة 1756 ثم وضعه مقدمة لكتابه: "مقاله في أخلاق الأمم وروحها"، غير أن هذا البحث لم يكن منظما ولا دقيقا بحيث لا يحدد من خلاله معنى المصطلح ، حيث قصد به مجرد تأمل عقلي في التاريخ البشري متأثرا بالترعة العقلانية السائدة خلال القرن الثامن عشر 1.

فولتير و نظرية التقدم:

يمثل عصر "فولتير" عصر التنوير، عصر سيادة العقل والعلم والقانون على الخرافة والأسطورة واللاهوت وقد عبر عن ذلك بمقولته المشهورة: " لو سئلت أي هؤلاء أعظم، "الاسكندر" أم "قيصر" أم "تيمور لنك"، أم "كارمويل"، لأجبت إن استحقاق العظمة يرجع إلى نيوتن، فهو أعظمهم جميعا".... فإن رجلا مثلا مثل نيوتن الذي لا يكاد وجود الزمان بمثله مرة كل عشرة قرون، يكون هو العظيم حقًا، أما هؤلاء الساسة والقواد فلا يكاد يخلو منهم قرن، بل ليسوا في الحقيقة إلا أشرازا، ومن ثم نجد أنفسنا ملزمين أن نحني رؤوسنا إجلالا لذلك الذي فسر الكون لا إلى أولئك الذين يشوهونه.

إن هذه المقولة تعبر عن التصور الجديد لفلسفة الأنوار والتي أولت أهمية قصوى للإنسان وكرست مقاييس جديدة وخاصة في الدراسات الفلسفية والتاريخية ولم يعد تقدم المجتمع يقاس بعدد الحروب التي خاضها وسير الملوك بقدر ما أصبح يقاس بنشاط المجتمع في ميادين العلم والتقنية والثقافية 2 ، وبهذا تصنف نظرية فولتير ضمن نظرية التقدم في التاريخ المستند إلى الفعل الإنساني لا إلى قوى خارجة عنه. يرى فولتير، أن التقدم في التاريخ يسير على مرحلتين، المرحلة الأولى عهد الفطرة الخالصة عاش فيها الإنسان عاقلا طبقا لقانون الفطرة يتمتع فيها بنتيجة عمله ويحترم فيها حقوق الآخرين ، والمرحلة الثانية عهد المدينة ، يعيش فيها الإنسان تحت نظام من صنعه ويحول فيه قانون الفطرة الى نظام اجتماعي يقوم على الحرية والعدل.

وللتقدم عند "فولتير" وأصحاب نظرية التقدم غايات ثلاث هي، الغاية الأولى: التقدم العقلي والعلمي، وهو أساس التقدم في جميع النواحي الأخرى ، وهو ما ركزت عليه فلسفات التنوير جميعها في محاربتها لألوان الجهل، والخرافة، واللاهوت، الغاية الثانية هي التقدم الاجتماعي خاصة في العادات والتقاليد واكتساب الإنسان سلوك التحضر والمدنية . الغاية الثالثة هي التقدم في مجال التشريع ، وإقامة النظم الاجتماعية على العدالة وعلى الديمقراطية في أساليب الحكم.

التاريخ اذن -حسب فولتير هو ما يسجل عن الحضارات أنها المعبرة عن المستوى العقلي للإنسان وإنجازاته وهي النظرية التي تعبير عن روح التنوير، عصر الأنوار عقب الكشوف العلمية والمنهج العلمي والتي عمقت

1 البان قريقوري ويد قري: التاريخ وكيف يفسرونه، ، ص 8

2 أحمد محمود صبحي: فلسفة التاريخ ، ص 181

النظرة التفاضلية للإنسان الغربي وعمقت قناعاته بالتقدم و النقد التاريخي والاستعلاء على الماضي بخطى وثيقة نحو التطور ونحو كل ما هو أفضل وأسمى.

منهج فولتير في كتابة التاريخ:

ينطلق فولتير، من رفضه أن تصبح دراسة التاريخ أكوامًا مترامية من المعارك أو المعاهدات السياسية دون مفهوم أو حكمة جارية، أراد إذًا فولتير تنقيح الدراسة التاريخية بما يمكن تسميته بالتاريخ النقدي، فقد قصد إلى تعديل طبيعة الدراسة التاريخية، من التاريخ السياسي والعسكري إلى فلسفة الحضارة. إن مهمة التاريخ النقدي أن يجرد الفكر الإنساني من العبودية والخرافة والغباء، من أجل نشر الحرية والتنوير والعقل، ومهمة فلسفة الحضارة أن تتسع دراسة التاريخ من أخبار المعارك وسير الملوك، إلى ما هو أهم حيث تتابع سير العقل البشري ممثلًا في شتى مظاهر النشاط الإنساني.

ينتقد "فولتير طرائق المؤرخين السابقين في تناولهم للتاريخ، حيث يقول: " إن بعض المؤرخين يهتم بالحروب وبالمعاهدات ولكني بعد قراءة ووصف ثلاثة وأربعة آلاف معركة وبضع مئات من المعاهدات لم أجد نفسي بعدها أكثر حكمة من قبلها، حيث لم أتعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة، وأي حكمة تكسب من العلم بسيادة حاكم طاغية على شعب بربري لاهم له إلا أن يغزو ويدمر؟ إن مجال التاريخ يجب أن يتسع لما هو أهم من ذلك ليتبع سير العقل البشري في الفلسفة والبلاغة،¹

إن التاريخ الحق هو تاريخ العلم؛ لأنه يكشف عن تقدم العقل البشري، ومن ثم يجب أن يكون شغلنا في التاريخ أن نتبع الاكتشافات منذ اكتشاف الخوارزمي للجبر إلى آخر منجزات عصرنا، إن وحدة التاريخ هي الحضارة لا شخص الحاكم.

وبناء على ما سبق يمكن القول أن نظرية "فولتير" تنسجم مع روح العصر عصر التنوير المتطلع نحو شروق شمس العقل والعلم، أما ما سبق من تاريخ البشرية فهو لا يعدو عن كونه مجرد شعوذة وظلام العقل ومن ثم لا تستحق العصور الماضية أن تفرد لها صفحات عند المؤرخ ولا هي جديرة بكلمة التاريخ. وقد عرف العصر الحديث والمعاصر نماذج تفسيرية فلسفية لمسار التاريخ كان من أبرزها التفسير العقلي للتاريخ عند "هيغل" "والتفسير المادي" نظرية المادية التاريخية لماركس" ونظرية حوار الحضارات عند "روجي غارودي"، ونظرية صدام الحضارات عند "صمويل" "هنتنغتون"، ونهاية التاريخ "فرانسيس فوكوياما".

المحاضرة الخامسة فلسفة التاريخ النقدية

علمية التاريخ:

تمهيد:

لقد سبق أن عرفنا في المحاضرات السابقة أن لفلسفة التاريخ جانبان الجانب الأول ويسمى بالفلسفة التأملية للتاريخ، وهي الدراسة التي تسعى لتقديم تفسير كلي لمجرى التاريخ الإنساني، وهو ما سبق التطرق إليه مع نظرية التعاقب الدوري لـ "ابن خلون"، والعناية الإلهية مع "أوغسطين" ونظرية التقدم التاريخي مع "فولتير"، أما الجانب الثاني للفلسفة التاريخ فهو ما يعرف بالفلسفة النقدية للتاريخ، ويهتم بالدراسة النقدية لمناهج علم التاريخ، والكشف عن المبادئ الأبيستمولوجية التي تتأسس عليها الكتابة التاريخية لدى المؤرخين، والبحث في طبيعة الحقيقة التاريخية قيمتها حدودها هل هي ممكنة أم غير ممكنة هل يمكن الوصول إلى الحقيقة فيما يخص وقائع التاريخ البعيد، وما أثر تأويلات المؤرخين على الحقيقة التاريخية، وهذا ما سنتطرق إليه في المحاضرات التالية.

طبيعة الحقيقة التاريخية

تتمايز العلوم بموضوعاتها ومناهجها فعلى أساس طبيعة الموضوع تتحد طبيعة المنه في كل علم وعليه فما موضوع التاريخ وما هو المنهج المتبع وما طبيعة هذا المنهج وهل هو كفيل بالوصول إلى الحقيقة التاريخية المنشودة؟

يعد ضبط مفهوم التاريخ واحدة من مشاكل الحقيقة في التاريخ، لأن الحقيقة في أي علم من العلوم مرتبطة بمفهومه، فالمفهوم هو الذي يحدد الغاية من العلم، يعرف التاريخ على أنه العلم الذي يعنى بدراسة الحوادث أو الوقائع التي حدثت في الماضي، أو هو العلم الذي يسعى لإقامة تتابع للأحداث التي وقعت بالفعل أو العلم الذي يختص بترتيب و تصنيف السلوك الإنساني عبر الزمن الماضي، و ثمة من يرى أن التاريخ سجل مكتوب للماضي أو الأحداث الماضية، ويعره "ابن خلدون" بقوله: " التاريخ فن يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم و الأنبياء في سيرهم و الملوك في دولهم حتى تتم فائدة الإقتداء في ذلك لمن يروقه في أحوال الدين و الدنيا." 1

فعلم التاريخ من هذا المنطلق علم اجتماعي باعتباره محاولة منظمة لمعرفة و تحقيق الحوادث الماضية عن طريق ربط كل واحدة منها بالأخرى و الكشف عن مختلف تأثيراتها على تشكيل و مسيرة الحضارة الإنسانية. لذلك قيل التاريخ هو علم الاجتماع المتحرك، و الأكيد أن غايته سامية حسب ما جاء في تعريف ابن خلدون وهي الاقتداء الذي يقودنا إلى تعديل الأخطاء الماضية سواء التي وقعنا فيها شخصيا أو التي ارتكبتها غيرنا ليكون مستقبلنا أفضل.

خصائص الحادثة التاريخية:

1 ابن خلدون: المقدمة، د ط، دار الفكر بيروت، 2002. ص42

تتميز الحادثة التاريخية عن غيرها من الظواهر الإنسانية وعن الظواهر الطبيعية بالخصائص التالية:

- الحادثة التاريخية فريدة في نوعها، تجري في زمان و مكان محددين ، فهي لا تتكرر لأن الزمن الذي حدثت فيه لا يعود من جديد و الإطار الاجتماعي الذي اكتنفها لا يبق نفسه، وهذه المقدمة تجعلنا ندرك أن مبدأ الحتمية - الذي يعتبر مبدأ أساسي في علوم المادة - لا يتحقق في الظواهر التاريخية لذلك تبقى المقولة التاريخية " التاريخ يعيد نفسه " مجرد أغلوطة لأنها تتجاوز العقلانية، فالعلوم الطبيعية تعني بالقوانين الكلية، لأن ظواهرها متشابهة ومتكررة ، لكن التاريخ يعنى بظواهر كل منها فريد في نوعه . وهذا ما يعقد من مهمة المنهج في التاريخ.

- الحادثة التاريخية حادثة اجتماعية ، ذلك أن الحوادث الفردية لا تدخل في التاريخ صحيح أن التاريخ يهتم بذكر حياة بعض الأفراد ، لكن لا يهتم بهم إلا من حيث ارتباطهم بحياة الجماعة ، وتأثيرهم فيها، والمؤرخ من أكثر المهتمين بكل جزئيات الحياة الاجتماعية ، ومدى تأثير مجالات هذه الحياة في مجريات الحدث التاريخي كالاقتصاد و السياسة وغيرها ، وإذا كان للرياضي أو الفيزيائي الحق في الانعزال أثناء الدراسة فإنه يتحتم على المؤرخ أن يغوص في أعماق المجتمعات ، وأنه لا غنى من دراسته لماضيه إلا باعتباره كائنا اجتماعيا .

- الحادثة التاريخية حادثة إنسانية، لأنها من صنع الإنسان و هي تخص الإنسان دون غيره ، وحتى إن درس المؤرخ بعض الحوادث الطبيعية فإنه لا يدرسها إلا من حيث تأثيرها على الحياة البشرية سلبا أو إيجابا ولما كانت الظاهرة التاريخية ظاهرة إنسانية صعب علينا تحديد بدايتها الواضحة وأصولها البعيدة و نتائجها وقت حدوثها ، وتخرج الظاهرة التاريخية من إرادة الباحث لتدخل في إرادة الإنسان .

منهج التاريخ:

يقوم منهج علم التاريخ على الخطوات التالية:

اختيار موضوع البحث:

نقصد باختيار موضوع البحث طرح مشكلة تتعلق بالماضي لها أهمية واقعية وجودية، و الباحث الأصل هو الذي يعرف كيف يختار المشكلة الحقيقية، فإن كان القصد من دراسة الواقعة التاريخية فقط هو العودة إلى الماضي و الوقوف على حقيقته فإنه يتحول إلى ما يشبه التسلية فقط ، لذا يجب أن تكون الغاية هي الاستفادة من الماضي لفهم الحاضر فنحن نعود إلى الماضي لنحل مشكلات خاصة بنا لا لتعرف عن مشكلة الماضيين فقط.

و قبل أن يشرع المؤرخ في دراسة الواقعة التاريخية ، لابد عليه من تحديد إطار هذه الواقعة زمنيا ومكانيا ، لأن المؤرخ مطالب بالتنقل إلى مكان الواقعة التاريخية ودراستها في الميدان الذي جرت فيه وفي سياقها الزمني أيضا ، وضبط الأعداد والسنوات في علم التاريخ يعتبر أكثر من ضرورة إن المشكلة المطروحة يجب أن تنطلق من المبادرة الذاتية للباحث التاريخي، وتنبثق من فصوله العلمي الخاص. ويجب أن

تكون المشكلة بقدر طاقة الباحث على العمل و مدى قدرته على الحصول على الأصول الضرورية. وأن يكون هذا الأصل قادرا على تقديم ما يوضح المشكلة و يحلها.

جمع الحقائق و الوثائق و تدوينها:

إن وسيلة الإجابة عن المشكلة التاريخية هي جمع المصادر و هي أهم أعمال المؤرخ. لأن التاريخ يصنع بالوثائق، وحيث لا وثائق لا تاريخ و يمكن القول أن كل حادثة تاريخية غابت مصادر لها قد ماتت موتا أبديا ، وهذه الوثائق هي طريقنا إلى إعادة بناء الواقعة التاريخية من جديد ، والوثائق صنفان : المروييات المأثورة. والمخلفات المادية، ويمكن تصنيفها أيضا إلى مصادر مادية كالمباني والتمائيل والنقود والأسلحة والنقوش ، ومصادر نفسية وتتمثل في الأساطير و القصص والآداب ، ومن هذه المصادر ما هو إرادي خلفها الإنسان بوعي وقصد منه، كشاهد على حياته، ومنها ما هو غير إرادي خلفها الإنسان رغما عنه لحفظ مصلحة معينة . وعليه فإن المصادر غير الإرادية تكون أكثر وثوقا من غيرها و على أن المؤرخ أن لا يضع ثقته الكاملة في الوثائق مهما كان نوعها بل يجب التحري والتحقيق.

النقد و الاختبار والتحقيق :

يطلق على عملية التحليل المفصل للاستدلالات التي تقود من ملاحظة الوثائق إلى معرفة الوقائع. و الوقائع اسم النقد، وهي عملية فكرية تراجعية، نقطة الانطلاق فيها الوثيقة، ونقطة الهدف الواقعة التاريخية. وبينهما سلسلة من الاستدلالات، تكون فيها فرص الخطأ عديدة، لأن مصادر المعلومات في معظمها مصادر غير مباشرة. تتراوح بين شهادات للأشخاص الذين حصروا الحوادث أو الذين سمعوا عنه أو كتبوا عنه، وبين الآثار و السجلات و الوثائق التي تركها. و المؤرخ هنا يتحول إلى عالم وفيلسوف وفنان في آن واحد، فهو مطالب بفهم جميع الفنون لتحصيل الحقيقة من خلال ممارسة النقد، و بما أن الوثائق معرضة للتلف و للتزوير بسبب قدمها. كما أن كاتبها معرض للنسيان أو التحريف، بهذا نطرح تساؤلات حول مدى موضوعية الوثيقة ومدى تطابق معلوماتها مع معلومات وثائق أخرى.

إن ما ذكرناه من حيث نقد الوثائق يعود بنا إلى نقد مصادر الخبر من حيث معرفة سلامتها أو زيفها. و الأسباب التي تدعو إلى التحريف و التشويه و الخطأ المتعمد فيها و غير المتعمد كان معروفا منذ القدم، وقد برع المسلمون في ميدانه عندما نقدوا الحديث والخبر، ووضعوا له قواعد صارمة ونميز في النقد العلمي للوثيقة التاريخية بين نوعين هما النقد الداخلي والنقد الخارجي.

النقد الخارجي:

يتناول فيه الباحث للوثيقة هوية الوثيقة و أصالة الوثيقة. أي صدق الوثيقة من عدمه، وكذلك تحديد مصدر الوثيقة. زمانها و مكانها. وهل هي الأصل أم منسوخة عنه و أشياء أخرى؟ وغاية النقد الخارجي إثبات أصالة

الوثيقة والتحقق من خلوها من التلفيق، و يستعين المؤرخ هنا بمجموعة من العلوم كالكيمياء للتأكد من عمر الوثيقة و علم النفس للتأكد من صحة الخط والإمضاء وغيرها.

النقد الداخلي :

يتناول مدى دقة الحقائق التي أوردها صاحب الأصل، ويسلط هذا التحليل على شخصية صانع الحدث التاريخي و ظروف كتابة النص التاريخي من طرفه . ومدى صحة ما أورد من حوادث. أي إثبات الحوادث التاريخية. ويرتبط ذلك ارتباطا كبيرا بتقويمها أي بمدى فهمها و شرحها، وهنا تتدخل قدرات المؤرخ الذاتية و خياله و إبداعه ، وثقافته الواسعة وقوة ملاحظته، إن المؤرخ لا يستطيع أن يفهم وثيقة قديمة إلا إذا فسرها على الأسس اللغوية التي سادت في العصر الذي كتبت فيه ، و كثيرا ما تحرف الحقيقة التاريخية بسبب عدم إتقان المؤرخ للدلالات الحقيقية للكلمات وقدرته على التأويل والاستنباط ، وبسبب جهل قواعد اللغة و إلى جانب هذا كله يجب على المؤرخ أن يكون على دراية واسعة بكل ظواهر العمران الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها ، وهنا يجب يكون المؤرخ بمثابة الفيلسوف الذي سلاحه النقد من خلال الشك في كل ما هو أمامه ليعيد تأسيس الحقيقة من جديد.

التركيب التاريخي:

تحتاج الحقائق التي تم جمعها الى أن تنظم و يتم الربط بينها، بفرضية تغلل الحادث و تبين مجرياته، وتتضمن عملية التركيب التاريخي عمليات مترابطة متداخلة مع بعضها تكون صورة فكرية واضحة لكل حقيقة من الحقائق المجمعة لدى الباحث، ومن خلال عملية التركيب يقوم الباحث بتكوين صورة فكرية واضحة لكل حقيقة من الحقائق المتجمعة لديه و للهيكل العام لمجموع بحثه. أي يكون صورة عن واقع الماضي تنشئها مخيلة الباحث من منطلق مشابهة الماضي الإنساني للحاضر، أو ما يعرف بالمقارنة التاريخية، ثم تصنيف الحقائق بحسب طبيعتها الداخلية، ويملك المؤرخ حق المحاكمة أو ما يسمى بسد الفجوات و الثغرات التي يجدها الباحث في هيكل التصنيف، لأنه لا يستطيع ملء هذه الثغرات وربط الحقائق التاريخية ببعضها أو البحث عن علاقات قائمة بينها. و أثناء سد الفجوات التاريخية تظهر مشكلة المنهج والحقيقة في التاريخ . فالمؤرخ سيكون متأثرا بالأحداث التي عاشها و الايديولوجيا التي يحملها ، لأنه يفتقر إلى البعد الزمني الكافي الذي يجعله يحكم بتجرد وموضوعية هادفا إلى الوصول إلى الحقيقة العلمية، وأثناء سد الفجوات التاريخية يضطر المؤرخ إلى إنشاء فروض عقلية فيتحول المؤرخ إلى ما يشبه عالم الطبيعة، غير أن عالم الطبيعة يحاور الماديات أما المؤرخ فيحاور خياله وكثيرا ما يطغى على هذا الحوار الجانب الشخصي للمؤرخ ، وحتى يكون الاستنباط سليما لابد من صياغته في صورة منطقية بحيث تترتب النتائج على مقدمات صادقة، وبراهين و شواهد عقلانية .

المحاضرة السادسة

الحقيقة التاريخية ومشكلة الذاتية

تمهيد:

المنهج العلمي عادة ما ينتهي إلى اتفاق حول قانون يجسد العقلانية و التجرد من الأهواء و يكرس الموضوعية (Objectivité) . لكن هل استطاع المنهج التاريخي أن يولد حقائق موضوعية ؟ وهل الاتفاق دليل على الموضوعية في الدراسات التاريخية ؟

إن أحد غايات العلم والفلسفة تحرير العقل من سيطرة الأهواء و بلوغ الوعي، وباعتبار التاريخ علما يسعى إلى تحقيق هذا الهدف فقد اصطدم هذا العلم بجدار الذاتية (Subjectif) أثناء تطبيق هذا العلم لمنهجه من خلال ممارسة التحليل والنقد ، لأن المؤرخ يمارس هذا النقد و التحليل على ذاته قبل أن يسقطه على الآخرين ، فيقع في نزاع مع نفسه ، و المؤرخ لا يستطيع أن يقيم القطيعة مع ذاته و عواطفه في كثير من المواقف لأن الظاهرة التاريخية تعتبر جزء من الذات الدارسة و هنا تكمن الصعوبة ذلك أن المؤرخ مطالب بتحديد مذهبه أو وجهته وفي غالب الأحيان سيختار المؤرخ الشواهد التاريخية التي تؤيد مذهبه و بدل أن يصبح المنهج التاريخي أداة لبلوغ الحقيقة يصبح أداة لتبرير حقيقة ما ، وفي كثير من الأحيان يأخذ المؤرخون التاريخ و ينقلونه طبقا لوجهة نظرهم الخاصة و لذلك فإن الموضوعية في التاريخ لا تعني مطالبة المؤرخ بأن تكون روايته للأحداث مستقلة عن كل وجهة نظر خاصة ، لأن ذلك يبدو في كثير من الأحيان مستحيلا ، وهذا يعني أن التاريخ يضيق من إقليم الموضوعية 1 .

1 نقلا عن : أبو القاسم سعد الله : آراء و أبحاث في تاريخ الجزائر ، ص 54

إن الاختلاف في التاريخ هو سيد الاتفاق ، لأن التاريخ إحياء للهوية و خطاب للآخر و هنا ممكن الاختلاف ، ذلك أن الأنا يأبى أن ينصهر في الغير و يحاول أن تكون ذاته مميزة عن ذوات الآخرين و إلا فما ضرورة التاريخ ؟

إن بعض المفكرين المعاصرين حاولوا تعديل العقلانية حتى تكون صالحة لدراسة الظواهر التاريخية وتخفف من حدة الذاتية ومن بينهم بختين (Bakhtin) و "جاك دريدا" (Derrida) و "ميشال فوكو" (M.Faucault) ، وبيّنوا أن الدراسات التاريخية ليست مطالبة إلى السمو إلى مصاف العلوم الرياضية ، لأن هذا غير ممكن ، لكن الممكن هو دراسة الظاهرة التاريخية بمنهج موضوعي قائم على الاختلاف ، فدريدا يعتقد أن التاريخ يفترض الصيرورة و الصيرورة بدورها تفترض الآخر ، لذا يتم دراسة الواقعة التاريخية وفق منهج الاختلاف ، ويقدم "بختين" برهانا مماثلا عندما يؤكد على أن التواصل يحتاج إلى الحجة الموضوعية بصورها المتعددة والتي تتوقف على مجال التخاطب و من دونه يفسّر التواصل و يتحلل ، ولكل الأصوات والحوارات صلة بالواقع الموضوعي بصرف النظر عن وعي الأشخاص و إرادتهم وبغض النظر عن التواصل ذات 1.

إن "بختين" يعتبر التاريخ حركة تواصل بين الأنا و الآخر ، ولا يمكن أن نصفه بالوحدة و الاتفاق التام على نحو النموذج الرمزي الرياضي فإذا كانت الرياضيات قد حولت قانون المرور - الذي يعبر عن التواصل - إلى رموز فإنها أبدا لن توحد و ترمّز الهويات والتراث ، ذلك أن التاريخ يحول بالجملة إلى مجال الثقافة و يصبح أصلا إنتاجيا.

إن الموضوعية تدعو الباحث إلى الابتعاد عن المصالح الذاتية و الابتعاد عن التحيز و تبني الوصف بالصدق قدر الإمكان حتى نصل إلى تمثيل مطابق لواقع الظاهرة وبالرغم من أننا نطمح إلى وصف صادق إلا أن هذا الأمر يبدو صعب المنـال ، لأننا خاضعين لكياننا المتضمن للشعور و الأحكام و التجارب و المعـارف السابقة ، وحرمة الفصل هذه تدعو المؤرخ أثناء رحيله إلى واقعة ما ، أن يترك دينه و أصله ليؤرخ بكل موضوعية ، إننا ندعو المؤرخ ها هنا حتى يكون موضوعيا أن يتحرر من كيانه فهل هذا المطلب معقول ؟

إن العلوم الطبيعية التي تعدّ ميدانا خصبا للموضوعية ، لكنها تحتوي على شيء من الذاتية ، إنها المنفعة من خلال البحث العلمي و اختيار التخصص ، إن طلب المنفعة الذاتية يمدنا بطاقة البحث ، كما بيّن ذلك البراغماتيون ، ويصعب على الباحث أن يكون حياديا حتى في العلوم الطبيعية ، فما بالك إذا تعلق الأمر

1 -P.Ricoeur: Histoire et vérité ,Coll ,Esprit ,Ed Seuil,1955, p23,24.

بأمور الحياة ، إن الدراسة في ميادين الإنسانيات بحق تنفلت من مسلمات العقل الموضوعية فقد اعترف ماكس فيبر - برغم وضعيته - أن "الحياة و العالم هما أساسا لا عقليان" 1 .

إن المؤرخ حتى و إن حاول التخلص من الأفكار المسبقة قدر الإمكان فإن محاولاته ضعيفة وهذه الغاية تبدو مستحيلة في كثير من الأحيان ، وعلينا أن نميز بين مؤرخ يتنكر لذاتيته و بين مؤرخ يكتبها لذا فإن الباحث يروض ذاتيته لكن لا يمكن أن يتخلى عنها وتظهر المفارقة بين الذاتية لدى الباحث في الظواهر الطبيعية و بين ذاتية الباحث في الظواهر التاريخية ، في أن الأولى كامنة في ذات الباحث فقط بينما الثانية كامنة في ذات الباحث وفي ذات صانع الحدث ، فإن تمكن المؤرخ من ترويض ذاتيته فإنه لا يمكن أن يروض ذاتية صانع الحركة التاريخية، وهنا تكمن المفارقة بين علوم الطبيعة و علم التاريخ يجب أن نعترف بأن وجود الموضوعية لا يقترن دائما بالوحدة و الاتفاق فقد يكون الاختلاف دلالة على الموضوعية ، لكن شرط أن يتأسس هذا الاختلاف على النقد بداية من نقد الذات ، كما يشترط في الاختلاف أن يستند إلى منطق الدليل لا العصبية و الأهواء بحيث يسمح هذا المنطق لرأينا أن يكون مقبولا لدى من عارضنا.

إن تفحصنا للموضوعية في البحث التاريخي تفحصا نقديا يجعلنا نجزم بافتقار الدراسات التاريخية لهذه الصفة ، إذ أننا لا نستطيع أن ندعي بشيء من الموضوعية ما دمنا خصوما و حكاما في ذات الوقت وما دمنا دارسين و مدرسين ، لأن الإنسان في البحث التاريخي يصبح هو نفسه جزء من دراسته و يؤثر بصورة لا شعورية في معطيات البحث فهو عندئذ يبدأ بدراسة التراث الإنساني فتدخل البواعث الخاصة لتثير طريق البحث العلمي ، لكن تحت ضوء هو ضوء الباحث الخاص وهذا ما حمل الكثير من الفلاسفة على اعتبار الموضوعية " العدو السري للعلوم الإنسانية سواء على مستوى الوعي العفوي و المحايد للموضوع أو الوعي التأملي أو وعي الوعي عند العلم".

واعتبر "ميشال فوكو" أيضا البحث التاريخي بعيد كل البعد عن البحث العلمي ، إذ أنه يقوم على أسس خالية من العقلانية العلمية يقول في ذلك >> لا جدوى من القول أن العلوم الإنسانية هي علوم خاطئة ، بل هي ليست علوم على الإطلاق ، والتشكيلات التي تحدد وضعيتها و تجذرها في الإبستمية الحديثة تمنعها من أن تكون علوما على الإطلاق" 2

هذا ويمكن القول في النهاية أن الذاتية جزء لا يتجزأ من الموضوعية في الدراسات التاريخية ، والتاريخ يجعل من إحياء ذاتية الفرد وهوية الشعوب أحد أهدافه الأساسية فكيف لنا إذن أن نطلب من المؤرخ تجاوز أحد غايات علم التاريخ؟

1 كريج براندست : الكانطية الجديدة في النظرية الثقافية ، ترجمة اسعد حليم ، الثقافة العالمية العدد 107 ، 2001 ، الكويت ، ص 127

2 ميشال فوكو الكلمات و الأشياء ، ترجمة مطاع صفدي ، د ط ، مركز الإنماء القومي . بيروت . 1990 ، ص 25

المحاضرة السابعة

الحقيقة التاريخية والايديولوجيا :

جاء في موسوعة لالاند الفلسفية أن الايديولوجيا (Idéologie) "فكر نظري يعتقد انه يتطور تطورا تجريديا في غمار معطياته الخاصة به ، لكنه في الواقع تعبير عن وقائع اجتماعية ولاسيما عن وقائع اقتصادية ، فكر لا يعيه ذلك الذي يبينه أو على الأقل لا يأخذ في حسابه أن الوقائع هي التي تحدد فكره "1

كما تعني الايديولوجيا على وجه العموم الانتماء الفكري إلى فئة أو مذهب أو طائفة دينية، والانطواء الفردي للإنسان تحت هذه الأفكار أو الايديولوجيات يجعل الحقيقة التاريخية مؤلمة للمؤرخ إذا ما تعارضت مع ايديولوجيته الخاصة، وقد يدفعه هذا الأمر إلى مداراة الحقيقة (Vérité).

و تتحول الحقيقة لدى المؤرخ أحيانا إلى غاية جماعية ويصبح الإقبال على الماضي و تفحصه بمثابة رجوع قصدي وليس لطلب المعرفة في حد ذاتها، بمعنى أن المؤرخ سيعود إلى الماضي وهو يحمل معه مشاعر قومه و جماعته ، ويتغلغل في هذا الماضي بهدف تعزيز آراء الجماعة و الدفاع عنها وهذا الأمر كثيرا ما يكون على حساب الأسس العلمية .

إن العالم ينطلق في بحثه عن الحقيقة من فكرة المعرفة في حد ذاتها ، ثم تتحول هذه المعرفة إلى قانون يعطي غايته النفعية ، لكن الغاية في الأبحاث التاريخية نتيجة ارتباطها بالايديولوجيا فإنها تحدد مسبقا، وإن ادعى بعض المفكرين قدرة المؤرخ على ممارسة الشك والنقد للتخلص من قيود الايديولوجيا و بلوغ الحقيقة، فإن هذا يبقى إدعاء نظري بعيد عن الواقع العملي، "فاليقين في الفكر التاريخي النظري يقين عقلي منفتح ، بخلاف اليقين في الفكر التاريخي الإيديولوجي ، الذي يغلب عليه طابع الارتياح الإيماني

1 لالاند: الموسوعة الفلسفية ، مادة الايديولوجيا ، ترجمة خليل احمد خليل، ط2 ، منشورات عويدات بيروت، 2001 .
ص611

المنغلق ، فالنظرة الإيديولوجية إلى التاريخ نظرة مطمئنة ، جدالية عند الضرورة بسيطة على العموم ، وهذه الصفات طبيعية في الفكر الجماهيري الموظف في خدمة أهداف عملية معينة"1.

إن إرادة الجماهير تدفع بالمؤرخ إلى تبني مصلحة الجماعة ولو على حساب الحقيقة وبالتالي تكون الحقيقة التاريخية رهينة ايديولوجيا الجماعة ويظهر أن "دلثاي" تفتن لمشكلة انصهار المؤرخ في الجماعة فأكد أن الأفراد يستغرقون في الجماعة من جهة وجودهم والمؤرخ يستغرق بمعرفته في مآثر الشعوب و مصائرهما ، وهذا ما حمل دلثاي على التأكيد بأن مشكلة الفهم في التاريخ عويصة و تتطلب القدرة على تمييز العلاقات الشخصية وفصل هذه العلاقات عن الخبر التاريخي2.

ولا يجب على المؤرخ أن ينتقل إلى الماضي كبنية اجتماعية ، وإنما يجب عليه أن يتحرر من هذه البنية و يؤرخ كعقل علمي ، لكنه إن فعل هذا فإنه يكون قد انسلخ من هويته، وهذا ما يرفضه التاريخ ، ويمكن القول أن التاريخ يتحول إلى إيديولوجيا في حد ذاته رغم أن الفصل بين الاثنين يبدو ضروري لبلوغ الحقيقة التاريخية ، لكن هذه الضرورة تتجاوز حدود المؤرخ ، لأن الالتحام بين الاثنين شديد إلى درجة يصعب معها الفصل بينهما.

إن الإيديولوجيا في كثير من الأحيان تعكس هوية الفرد و بنيته النفسية باعتباره فرد في جماعة ، وهذه الهوية تعبير عن حياة دفيئة تتحكم في وعي المؤرخ و تطالبه بالدفاع عنها ، دفاعا لا مكان فيه للوسائل والغايات الشريفة بقدر ما تنتعش فيه العصبية ، ومن الواضح أن الحياة الفردية و التي يمثلها المؤرخ تحركها أفكار الجماعة ، وتكون لها بمثابة القوة الخاصة أو الجدران الصلبة التي يتحرك الفرد في مضمارها و يحرم عليه الخروج عنها مهما كانت نهاية المضمار.

وقد بين "غدامار" أن الخبر التاريخي يتحول إلى تراث تنصهر فيه روح المؤرخ مع روح الجماعة و هذا ما يظهر في قوله "و من هنا يصبح التراث ككل بالنسبة للوعي التاريخي الموجه الذاتي للعقل الإنساني ، يستولي الوعي التاريخي على ما بدا أنه أفرد على نحو خاص للفن والدين والفلسفة"3.

وكان عقل الإنسان تحول إلى منظومة إيديولوجية تجمع في طياتها التوجه الفلسفي و الديني و حتى الفني للإنسان ، ويصبح العقل الفردي مبرمج حتى و إن تخيل الحرية ، و ما يؤكد قولنا هذا التناقض الحاصل على مستوى أغلب الحقائق التاريخية والتي تعرف في كثير من الأحيان تضاربات وتناقضات لا عقلانية.

1 - ناصيف نصار : الفلسفة في معركة الإيديولوجيا ، دت ، ص 172

2 غدمار : الحقيقة و المنهج ، ط1 ، ترجمة حسن ناظم و علي حاكم صالح ، دار أويا للنشر و التوزيع ، طرابلس، 2007 . ص324

3 غدمار : الحقيقة و المنهج ، ص318

هذا ويميز المفكر العربي المعاصر "ناصر" بين العلم و الفلسفة و الايدولوجيا مبيّنا أن غاية العلم و الفلسفة هي طلب الحقيقة ، لكن الفلسفة تلتقي مع الايدولوجيا كونهما يهدفان إلى توجيه الفاعلية الإنسانية، لكن الايدولوجيا ترتبط بفاعلية جماعة تاريخية بعينها.1

ومن هنا يظهر الفارق بين العلم و الايدولوجيا ، إذ أن العلم يخاطب العقل فينا بينما تخاطب الايدولوجيا عواطفنا . وهذا ما يجعل الدراسات التاريخية بعيدة عن المنهج العلمي لارتباطها بالايديولوجيا .

نحن لا نحاول بهذا أن نهدم فعالية علم التاريخ أو نلغي الحقائق فيه لكننا نريد أن نكشف بعض ما خفي و قد نصل من خلال هذا النقد إلى تعديل المناهج . فإن كانت الايدولوجيا موجه و متحكم في الحقائق التاريخية سواء كان هذا لصالح الحقيقة التاريخية أو ضدها. فكيف نخفف من أثرها في البحث لتاريخي ؟ هذا ما يتوجب علينا الإجابة عنه.

إن الحقيقة في التاريخ - حتى تتحرر من سيطرة الايدولوجيا - يجب أن تقوم على قول الحق وقول الحق في التاريخ يقتضي قاعدتين ؛ أولهما تتعلق بتصريح المؤرخ بالايديولوجيا التي يحملها والتي يدافع عنها حتى ينبه الآخرين إلى ذاته وهويته وثانيهما تتمثل في اعتماد الدليل المنطقي العقلاني القائم على الشك و النقد في تبرير الحقيقة التاريخية أو رفضها و تنزيهها عن الغايات النفعية ، فتكون الحقيقة التاريخية بذلك غاية في حد ذاتها - على عكس الحقيقة في العلوم الأخرى - ويجب أن يتحول التاريخ من ايديولوجيا و هوية إلى علم يبحث عن الكمال بتجاوز أخطاء الإنسان السابق ، و ليس وسيلة لتمييز الذات أو الافتخار بالماضي .

ويجب أن نعترف بأن الفرق شاسع بين عقلانية المنهج و النتيجة في العلوم الطبيعية و بين عقلانيته في علم التاريخ ، بل إن الظاهرة التاريخية تحتم على المنهج أن يكون مرنا كالنابض الذي يتأقلم مع كل وضع جديد ، و عقلانية المؤرخ يجب أن تتحدد بإيمانه باحتمال تغير نتائجه و عدم ثبات حقائقه و هذه روح التاريخ الحقيقة ، و بهذا تنتفي قواعد المنهج العقلاني - و المتمثلة خاصة في الوضوح و البداهة و القانون - في الظاهرة التاريخية خاصة على الصعيد التطبيقي ، ولو تتبعنا الحقيقة في الرياضيات و العلوم الطبيعية لوجدناها تميل إلى السبات ، و إن أصابها تغيير فإن هذا التغيير يكون بمثابة تطور و تعديل ، لكن الحقيقة التاريخية تظهر و تنتفي في كثير من الأحيان ، و هذه الحركة في الحقيقة التاريخية تجعل من الدراسة التاريخية بعيدة عن الإحصاء و الاستقراء الرياضي الذي أصبح معيارا لليقين .

وفي النهاية يتضح جليا أن فكرة المصادفة و الايديولوجيا أبعدت إلى حد ما المناهج المتبعة في الدراسات التاريخية عن التنبؤات العلمية التي تتخذ من القانون العلمي أساسا لها ، ومن هنا يختلط التفسير الفلسفي الذاتي مع التفسير العلمي في الدراسات التاريخية ، و علينا أن ندرك مبلغ الصعوبة في دراسة الظواهر التاريخية ، و علينا أيضا أن نعترف بالمعانات التي يواجهها المؤرخون في بناء الحقيقة التاريخية . وما وجود وجهات نظر

1 ناصر : الفلسفة في معركة الايديولوجيا ، ص175

مختلفة في تصورها العام لمسار التاريخ أشهرها الجدل الهيجلي ، أو تحقيق مجتمع اللاطبات كما هو عند ماركس أو الدورة التاريخية كما هو عند ابن خلدون أو فيكو أو توينبي وغيرها من النظريات إلا دليل على أن التفسيرات التاريخية للحوادث لا تخرج عن كونها اجتهادات بشرية قابلة للنقد و المراجعة .